المحاضرة التاسعة

الحضور الاستعماري في الرواية العربية

الجزء الثاني

الرواية و ثيمة الاستعمار: هنا ك روايات عديدة طرحت موضوع الاستعمار و حاولت وضع دراسات عميقة اعتمدت طاقات الفن الروائي و استكشاف الآثار الواعية و غير الواعية التي تركتها حركة الاستعمار الغربي في نفسيات الشعوب المستعمرة و المستعمرة على حدّ سواء هذا من جهة ،و تفكيك أسطورة الغرب الاستعماري الذي يزعم أنه معلم البشرية و ناقل الحضارة ضمن خطاب تم تشويهه و قمعه تاريخيا من جهة أخرى.

و قد تم ذلك بما نجده من نصوص أنتجت ما أسموه (المعرفة) و صاغوا الحقيقة بطرق سلبية تمّت هيكلتها وفقا لمنظور الاستعمار و وفق بنية خطابية جعلت الشرق تحت حماية المعرفة الغربية.

لكن الوجود الحضاري العربي و بما يمتلكه من ارث حضاري عميق ،و بما يغتني به من امكانيات و من خلال ما أبرزته الدراسات النقدية للرواية بخصوص الموضوع بدأ يمارس نوعا من المقاومة المشروعة و المسلّحة بالفكر الناقد الذي يستطيع التعامل مع الذات و الآخر الاستعماري بوعي و موضوعية ،محاولا التحرّر من التبعية للاستعمار و التسليم له و متجاوزا لتبعية المركزية الغربية التي تعمل على الاطاحة بالحضارات المغايرة و محاولة استيعابها و محاصرتها و العمل على افنائها ان أمكن.

هذا ما ستكشف عنه الدراسات النقدية وفق منظور النقد الكولونيالي و ما بعده في عرض لموضوع الاستعمار بدلالاته و اتجاهاته في خطابات النقاد المتنوعة التي تعمل على تصنيف النصوص ضمن حقب زمنية مختلفة و بحسب اشتراكها في الاشتغال على قضايا ثيمة الاستعمار القائم على مفهوم الصراع بين الشرق والغرب و ما ينطوي عليه من دلالات مغايرة تفضل الشكل و المحتوى الذي يجعلها قادرة على الهجرة و الانتقال الى الوعي واللاوعي و التحوّلات المحمومة في عوالم الغموض.

كما تتضمن صورا شديدة التعقيد تتقاطع فيها التصورات و الرؤى بين واع للانطلاق و آخر قائم على الانفتاح و ثالث للتبعية الغربية و رابع يحذّر من الاستعمار و تبعيته مؤكّدا على حتمية الصراع.

و وفق هذه التنوّعات من نجده يدعو لعالمية الفكر والأدب و ضرورة التنوّع في سياق الموضوع ذاته و هو ينتقل من حقل الى آخر من السياسة و الاقتصاد الى الفلسفة و الحضارة الى التاريخ و الجغرافيا و الأدب... .و جميعها نجدها تنتقل ضمن علاقات نجدها بديهية و واضحة نكاد نلحظها.

و سنحاول ان نتعرف على نص يمثل النموذج للنصوص التي عالجت الحضور الاستعماري كثيمة أساسية في المتخيّل السردي و هي رواية (موسم الهجرة الى الشمال) للروائي (الطيب صالح).

من العنوان (عنوان الرواية) نجده يعبر عن الحركة الثقافية الاستعمارية القائم عليها موضوع الرواية و العلاقة بين زمن صدور الرواية و موضوع الاستعمار علاقة متبادلة على الرغم من وجود مسافة الزمن.

و من خلال هذه العلاقة يبدو الموضوع توصيفا حقيقيا للحالة الاشكالية التي تمثلها الحركة الثقافية الاستعمارية القائمة على طمس ثقافات الشعوب الأصيلة و هي تأخذ وضعية قلقة و ممزقة ينظر اليها من منظور مخالف للمنظور الذي صاغ الوجود الحقيقي و الروائي لشعوب الشرق ،و هذه الطريقة في التعامل مع أصالة الثقافة الحقيقية للشعوب المستعمرة نعدّها جزءا من سياسة الاستعمار الاوروبي لبلاد الشرق الذي تدعمه مؤسسات و بيروقراطيات و أساليب استعمارية.

يرى (ادوارد سعيد) أن الرحلة في الرواية تمثل هجرة مقدسة من الريف السوداني الى قلب اوروبا ،بحيث يطلق (مصطفى سعيد) شخصية البطل في الرواية عنان عنف طقوسي ضد نفسه و ضد النساء الاوروبيات و ضد فهم الراوي ،و ترى تحليلات نقاد آخرين ان قصة الاستعمار في الرواية نجدها تعبر عن التجربة الفاعلة لشخصية (مصطفى سعيد) وفق المنظور الاستعماري لقراءة الموضوع و التي تنطلق من رؤية قوامها الانتقام من الغرب و أداؤها 'المكر و الجنس' و هي رؤية متعددة الأبعاد تستثمر قضايا الاستعمار و الصراع في مجال ما بعد الاستعمار و تتخذ طريقا الى تصور الذات الغربية .

نجد النص يتحدى الصمت المفروض على الشرق موضوعا يرتكز على تصورات تخفي شروط انتاجه و طريقة تداوله.

و القراءات المتعددة لنص (موسم الهجرة الى الشمال) أسهمت في زعزعة الكثير من القناعات الراسخة التي كانت تنظر الى النص بوصفه مستودعا لمعارف جاهزة بالإمكان التعرّف عليها كليا أو جزئيا استنادا الى قدرة المحلل في الكشف عن العوالم الدلالية التي يبنيها النص.

ان رواية (موسم الهجرة الى الشمال) و بما تحتله من مكانة لا يمكن ان تتحوّل الى مجرد اثبات لفرضية ،انها شأن أي عمل فني كبير تعكس واقعا محددا و تجيب على اسئلة في الوقت الذي تحافظ فيه على غموضها منتجا وعلى اسئلتها معلقة مفتوحة.

و وفق منظور الشخصية المأزقية نجد الاتجاه الثقافي الرافض للغرب الاستعماري و كيف يمكن أن تكون الثقافة عنصرا مساعدا في تحقيق هذا الاتجاه.

و الواقع أن شخصية (مصطفى سعيد) الذي يمثل شخصية المثقف العربي في الرواية نجده بعد عودته لا يعاني من عقدة الدونية في وطنه ،الذي لم يصل الى مستوى الحضارة و هو غير متماثل بثقافة الغرب بل هو مرتبط بالماضي ،و هنا يتشكل الصراع ضمن محورين : الأول على المستوى الثقافي و الثاني ينهض على المستوى السياسي يتماثلان و يتغلب احدهما على الآخر و هذا الصراع الذي نجده قائما في الرواية يتبناه الكاتب.

انّ شخصية (مصطفى سعيد) تمثل المثقف العربي المتخرّج من المدرسة الكولونيالية ،فهو النموذج للمثقف البطل في مجتمع مستعمر عاش تجربة الاستعمار و استوعبها كاملة و أدرك قواها الفاعلة روحيا و جسديا و هذه الشخصية لم تكن عقلا خالصا على مقاعد مدرسة الحضارة ،و انما عقلا تقبل أن الحضارة قابلة لأن تضغط و تكثف في أقراص تبتلع ابتلاعا.

ان رموزها توحي بانعكاس الوضع المأزوم الذي تعيشه البلاد. و عن أزمة و مأساة و مسار المثقف بين التمسك بالقديم و الانفتاح على الجديد ،و للخلاص من كل ذالك يجب

علـــى الشـــعوب المقهـــورة و المســـلوبة الارادة و التـــاريخ ،و التـــي اكتشـــفت الصـــدمة الاســـتعمارية عن تخلفها أن تستيقظ و تحرق المسافات الحضارية للخلاص من آثار المستعمر.

الهدف العام

حضور ثيمة الاستعمار في الرواية العربية

الأهداف الخاصة

كيـــف اســـتطاع الروائـــي التعامـــل مـــع ثيمـــة الآخـــر الاســـتعماري ايضـــاح الحالـــة الاشـــكالية التـــي تمثلها الثقافة الاستعمارية

نموذج يوضح كيفية تناول الروائي لثيمة الاستعمار

انشطة التقويم

اسئلة عن مضمون المحاضرة

مقال يناقش كيفية تعامل الروائي مع ثيمة الاستعمار

المراجع

نحن والآخر صراع وحوار	ناصر الدين الأسد
أزمة الحضارة صورة الأنا والآخر في السرد	محي الدين صبحي وآخرون
الطيب صالح عبقري	الرواية العربية